

الرحلة المباركة

المؤلف: الدكتور/أحمد محمد زين المتأوي

التاريخ: 10/12/2016

يقتلون البراءة..

يذبحون الطهر على مذبح المادة..

يمسحون بالنقاء قذارة الشهوات..

يغرون الإنسان كي ينسى أنه إنسان..

المقاومون وحدهم هم الناجون يأنسانيتهم..

الإسلام.. الدين الذي يحفظ للإنسان إنسانيته.. النور الذي يهدي إلى الغاية الحقيقية للحياة..

الإسلام.. هو المنهج الذي أعاد إلى بطلة قصتنا شعورها بأنها إنسانة.. وليس صنّما.. أو جماداً..

كانت في الثامنة والعشرين من عمرها.. غانية حسناء أغدقها جمالها الغامر في عالم الشهرة والإغراء من شعر رأسها حتى أخص قدميها.. كانت تحلم في صغرها بأن تعلم ممراضة متقطعة تساعد المرضى.. بدافع من أهلها استغلت جمالها الصارخ في عمل يدر عليها وعلى أسرتها الربح المادي السهل والكبير، ويجلب لها الشهرة الواسعة.. لكن.. في مقابل ذلك دفعت الثمن غالياً بأن فقدت إنسانيتها الكريمة وتحولت إلى صنم بارد فاقد للحياة والحياة.. زيارة لبيروت - حيث كانت الحرب مستعرة- مثّلت نقطة فارقة في حياتها.. بدأت وقتها خطوطها الأولى في طريق الإنسانية، ثم واصلت طريقها حتى دخلت الإسلام من أوسع أبوابه [١]

إنها فابيان عارضة الأزياء الفرنسية المعروفة وبطلة هذه القصة.. ما سبق ذكره يدور حول حياتها الأولى فماذا عن قصة خروجها من أضواء الشهرة المعتمدة بظلمات الجهل والضلال ودخولها إلى رحاب الإسلام المشبعة بفيوض النور حتى الارتقاء؟

تقول فابيان بلسان يلهم بالشكر لله تعالى وبصوت مملوء بالإيمان: "لولا فضل الله تعالى علي ورحمته الواسعة بي لفقدت حياتي وأضاعتها في عالم مادي ينحدر فيه المرء من إنسان كريم ولد نقى بالفطرة إلى حيوان جامح كل همه إشباع الرغبات والغرائز بلا قيم ولا مبادئ".

وتروي فابيان قصتها قائلة: "منذ طفولتي كان حلمي الوحيد يتمثل في أن أعمل ممراضة متقطعة أساعد المرضى وأخفف آلام الأطفال.. مرت الأيام سراغاً وكبر معي حلمي الجميل.. لكن.. انتبه الجميع لما أصبحت أتمتع به من جمال تزيينه الرشاقة.. فجأة تحول الجميع من حولي - بنى في ذلك أفراد أسرتي- إلى أبواق ملحاحاً تحزّبني على وأد حلم الطفولة البريء، واستغلال جمال الصارخ في عمل أكسب من ورائه ريشاً مادياً وفيزاً، وأحصل على شهرة واسعة [٢]

ووجدت الطريق إلى عالم الشهرة أمامي سالكاً بمساعدة من جمالي ودعم من الشيطان.. لم يمض علي وقت طويل حتى تذوقت طعم الشهرة، كما فاضت حياتي بالهدايا الثمينة التي هطلت علي من كل ناحية وصوب [٣]

ولكن.. دون الشهد خرط القتاد.. نعم لقد دفعت الثمن غالياً.. فلا نجاح في مجالي دون التجرد الكامل من إنسانيتي.. فلكي تنجح الفتاة وتتألق في مثل هذا المجال يشرط عليها أن تقتل في دواخلها مراكز الإحساس، والشعور.. كان يتحتم علي أن أفعل ذلك وأن أتخلى كليّة عن الحياة الذي تربيت عليه، وأن أفقد ذكائي الذي عرفت به، وأن يقتصر فهمي فقط على حركات جسدي الرشيق، وإيقاعات الموسيقا الحالمة التي تصاحب العرض، بل كان علي أن أحزم من جميع أنواع المأكولات اللذيذة، وأن أعيش على الفيتامينات الكيميائية وعلى المقويات والمنشطات، ومن قبل ذلك كله فرض علي أن أفقد تماماً مشاعري تجاه البشر فلا أكره.. ولا أحب.. وأن أفقد نفسي فلا أرفض شيئاً يملئ علي [٤]

قالت فابيان وهي تتنهد في حسرة ومرارة: لم يجعل مني بيوت الأزياء سوى صنم متحرك مهمته الأولى العبث بالقلوب واللعب بالعقل.. لقد تعلمت فيها كيف أكون باردة قاسية من الخارج مغفورة فارغة من الداخل.. مجرد إطار آلي يرتدي الملابس.. جماد يتحرك بلا أحاسيس ذي وجه يبتسم بلا مشاعر.. لم أكن أنا فحسب المعنية بقانون البرود؛ فقد كان يطبق على الجميع.. وكان الالتزام به يمثل

معياراً للنجاح.. فكلما تألقت العارضة في تجرّدها من بشريتها وتنكرها لأدميتها زاد قدرها وعلا شأنها في هذا العالم البارد.. والعكس صحيح لمن تخالف أياً من تعاليم الأزياء؛ إذ ستجد نفسها عرضة لألوان شتى من العذاب.. صنوف متعددة من العقوبات يدخل فيها الأذى النفسي جنباً إلى جنب مع نظيره الجسماني!

وتسرب "فابيان" في حديثها قائلة في حرقـة: "لقد عشت جزءاً من حياتي أتجول بين دول العالم.. أعرض أحدث خطوط الموضة بكل ما فيها من تبرّج وإرضاـء لرغبات الشيطان الخبيثـة في إبراز مفاتـن المرأة دون خجل أو حيـاء.. لم أكن حينذاك أحـس بجمال الأزيـاء التي تغطي جـسديـاـ الخاويـ من كل شيءـ كـريم.. وفيـ المـقـابـلـ كنتـ أـشـعـرـ بـنـظـراتـ الـأـذـرـاءـ وـالـاحـتـقارـ فـيـ أـعـيـنـ الـحـضـورـ.. ياـ لـلـمـأسـاةـ لـقـدـ كانـواـ يـحـتـقرـونـ شـخـصـيـ بيـنـماـ يـحـترـمـونـ مـاـ أـرـتـديـهـ.. وـمـعـهـمـ كـلـ الحـقـ فـيـ ذـلـكـ.. أـوـلـمـ أـكـنـ مـجـرـدـ صـنـمـ بـارـدـ خـالـيـ مـنـ الـحـيـاةـ؟ـ"

وتنتهد فابيان بصوت مسموع قبل أن تقول: كـانـ نـحـيـاـ فـيـ عـالـمـ الرـذـيلـةـ بـكـلـ أـبعـادـهـ وـرـزاـيـاهـ.. الـوـيلـ كـلـ الـوـيلـ لـمـ تـعـرـضـ عـلـيـهـ الرـذـيلـةـ فـتـرـفـضـهـ وـتـحـاـولـ الـاـكـتـفـاءـ بـعـمـلـهـ فـقـطـ.. وـقـدـ كـانـ نـسـتـحـقـ ذـلـكـ.. أـوـلـمـ نـكـنـ مـجـرـدـ دـمـيـ لـاـ تـمـلـكـ قـرـارـهـ بـيـدـهـ؟ـ"

وعـنـ التـحـولـ الجـذـريـ المـفـاجـعـ فـيـ حـيـاتـهاـ تـقـولـ فـابـيانـ فـيـ حـمـاسـةـ: "كـانـ فـيـ رـحـلـةـ عـمـلـ إـلـىـ بـيـرـوـتـ الـتيـ دـمـرـتـهـ الـمـؤـامـرـاتـ وـأـحـرـقـتـهـ نـيـرـانـ الـحـربـ.. رـأـيـتـ هـنـاكـ كـيـفـ بـيـنـيـ النـاسـ الـفـنـادـقـ وـالـمـنـازـلـ تـحـتـ دـوـيـ الـمـدـافـعـ.. دـخـلـنـاـ مـسـتـشـفـيـ لـلـأـطـفـالـ أـنـاـ وـمـعـيـ زـمـيـلـاتـيـ مـنـ الـأـصـنـامـ الـبـشـرـيةـ.. نـظـرـتـ زـمـيـلـاتـيـ إـلـىـ الـأـطـفـالـ الـجـرـحـيـ كـعـادـتـهـنـ بـلـامـبـالـةـ.. عـلـىـ عـكـسـهـنـ تـأـثـرـتـ كـثـيـرـاـ بـمـرـأـيـ الـأـطـفـالـ الـأـبـرـيـاءـ وـهـمـ يـدـفـعـونـ ثـمـنـ فـاتـورـةـ حـرـبـ أـشـعـلـهـ الـكـبـارـ.. بلـ اـنـقـشـعـ عـنـ عـيـنـيـ زـيـفـ الـحـيـاةـ الـتـيـ كـنـتـ أـعـيـشـهـاـ.. اـنـدـفـعـتـ فـيـ سـرـعـةـ نـحـوـ أـشـلـاءـ الـأـطـفـالـ فـيـ مـحاـولةـ مـنـيـ لـإـنـقـاذـ مـنـهـمـ جـرـاءـ جـراـحـهـ"

لمـ أـعـدـ إـلـىـ الـأـصـنـامـ الـبـشـرـيةـ.. كـانـواـ يـتـوـقـعـونـ عـودـتـيـ إـلـىـ الـفـنـدقـ حـيـثـ الـجـمـيعـ فـيـ اـنـتـظـارـيـ جـنـبـاـ إـلـىـ جـنـبـاـ مـعـ الشـهـرـةـ الـزـائـفـةـ وـالـأـضـواءـ الـخـاوـيـةـ.. نـعـمـ أـنـهـيـتـ بـمـحـضـ إـرـادـتـيـ حـيـاةـ الـزـيـفـ وـالـضـلـالـ لـأـبـدـاـ أـولـيـ خـطـوـاتـ رـحـلـتـيـ نحوـ الـإـنـسـانـيـةـ.. إـنـهـ رـحـلـةـ مـبـارـكـةـ أوـصـلـتـنـيـ بـدـورـهـ إـلـىـ طـرـيقـ الـهـدـىـ لـأـنـعـمـ بـنـورـ الـإـسـلـامـ"

تركتـ بـيـرـوـتـ وـرـأـيـ وـذـهـبـتـ إـلـىـ مـحـطةـ أـخـرىـ أـكـثـرـ تـقـدـمـاـ فـيـ طـرـيقـ الـإـنـسـانـيـةـ حـبـ وـصـلـتـ باـكـسـتـانـ لـأـعـيـشـ عـنـ الـحـدـودـ الـأـفـغـانـيـةـ حـيـاةـ حـقـيـقـيـةـ تـعـلـمـتـ مـنـهـاـ كـيـفـ أـكـونـ خـادـمـةـ لـلـإـنـسـانـيـةـ.. مـكـثـتـ بـهـذـهـ مـحـطـةـ ثـمـانـيـةـ أـشـهـرـ تـفـرـغـتـ خـالـلـهـ لـرـعـاـيـةـ الـأـسـرـ الـتـيـ عـانـتـ وـبـلـاتـ الـحـرـبـ.. لـيـسـ هـذـاـ فـحـسـبـ بـلـ أـحـبـتـ الـحـيـاةـ مـعـهـمـ، فـأـحـسـنـواـ مـعـاـمـلـتـيـ.. الـحـقـيـقـةـ حـيـاتـيـ مـعـ الـأـسـرـ الـأـفـغـانـيـةـ وـالـبـاـكـسـتـانـيـةـ زـادـتـ كـثـيـرـاـ مـنـ قـنـاعـتـيـ بـالـإـسـلـامـ كـدـيـنـ وـكـدـسـتـورـ لـلـحـيـاةـ إـذـ أـعـجـبـنـيـ أـسـلـوبـهـمـ الـمـلـتـزـمـ فـيـ حـيـاتـهـمـ الـيـوـمـيـةـ.. فـاعـتـنـقـتـ الـإـسـلـامـ عـنـ قـنـاعـةـ"

بدأتـ حـيـنـذـاكـ تـعـلـمـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ باـعـتـبـارـهـاـ لـغـةـ الـقـرـآنـ، وـقـدـ أـحـرـزـتـ تـقـدـمـاـ مـقـدـرـاـ فـيـ ذـلـكـ.. سـبـحـانـ اللـهـ مـغـيـرـ الـأـحـوـالـ.. لـقـدـ تـغـيـرـتـ كـيـمـيـاـتـيـ نـفـسـيـ تـمـاـمـاـ فـبـعـدـ أـنـ كـنـتـ أـسـتـمـدـ نـظـامـ حـيـاتـيـ مـنـ صـانـعـيـ الـمـوـضـةـ فـيـ الـعـالـمـ أـصـبـحـتـ حـيـاتـيـ تـسـيرـ وـفـقـاـ لـمـبـادـعـ الـإـسـلـامـ"

لمـ تـيـأـسـ بـيـوـتـ الـأـزـيـاءـ الـعـالـمـيـةـ مـنـ عـودـةـ فـابـيانـ لـهـاـ مـرـأـيـ بـعـدـ اـعـتـنـاقـهـاـ الـإـسـلـامـ فـمـارـسـتـ عـلـيـهـ ضـغـوـطـاـ دـنـيـوـيـةـ مـكـثـفـةـ.. لـقـدـ أـرـسـلـواـ لـهـاـ الـهـدـيـاـتـ الـثـمـيـنـةـ كـمـاـ أـغـرـوـهـاـ بـمـضـاعـفـةـ دـخـلـهـاـ الـشـهـرـيـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـضـعـافـ بـيـدـهـاـ رـفـضـتـ بـإـصـارـاـ.. عـنـدـمـاـ فـشـلـتـ سـيـاسـةـ الـإـغـرـاءـ مـعـ فـابـيانـ لـجـاتـ تـلـكـ الـجـهـاتـ إـلـىـ الـأـسـلـيـبـ الـقـدـرـةـ كـمـحـاـوـلـةـ تـشـوـيـهـ صـورـتـهاـ أـمـامـ الـأـسـرـ الـأـفـغـانـيـةـ.. قـامـوـاـ بـنـشـرـ أـغـلـفـةـ الـمـجـلـاتـ الـتـيـ كـانـتـ تـتـصـدـرـهـاـ صـورـهـاـ السـابـقـةـ حـيـنـمـاـ كـانـتـ تـعـمـلـ عـارـضـةـ لـلـأـزـيـاءـ، وـعـلـقـوـهـاـ فـيـ الـطـرـقـاتـ وـالـأـمـاـكـنـ الـعـامـةـ فـيـ مـحـاـوـلـةـ مـنـهـمـ لـلـإـيقـاعـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ أـهـلـهـ الـجـدـدـ، وـلـكـنـ خـابـ ظـنـهـمـ وـفـشـلـ مـسـعاـهـمـ..

وـتـنـظـرـ فـابـيانـ إـلـىـ يـدـهـاـ فـيـ دـهـشـةـ وـتـقـولـ: "لـمـ أـكـنـ أـتـوـقـعـ يـوـمـاـ أـنـ أـقـضـيـ بـتـعـرـيـضـ يـدـيـ لـلـأـعـمـالـ الشـافـةـ وـسـطـ الـجـبـالـ وـأـنـ الـتـيـ كـنـتـ أـقـضـيـ السـاعـاتـ الطـوـالـ فـيـ الـمـحـافـظـةـ عـلـيـهـمـ نـاعـمـتـينـ.. لـكـنـ هـذـهـ الـمـشـقـةـ لـمـ تـزـدـ يـدـيـ إـلـاـ نـصـاعـةـ وـطـهـارـةـ، وـسـيـكـونـ لـهـاـ حـسـنـ الـجـزـاءـ عـنـدـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ إـنـ شـاءـ اللـهـ".

سـبـحـانـ اللـهـ!! رـكـلتـ فـابـيانـ وـرـاءـهـاـ الـثـرـاءـ وـالـشـهـرـةـ وـالـمـجـدـ وـالـحـيـاةـ الـمـادـيـةـ الـزـائـفـةـ لـتـعـيـشـ حـيـاةـ قـاسـيـةـ بـيـنـ الـجـبـالـ لـتـسـاعـدـ الـجـرـحـيـ.. وـالـمـرـضـيـ لـكـيـ تـنـعـمـ بـالـحـيـاةـ الـحـقـيـقـيـةـ السـعـيـدـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـلـكـيـ تـنـالـ الـثـوابـ مـنـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ الـآـخـرـةـ..

نعمـ الـحـيـاةـ الـحـقـيـقـيـةـ.. فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ..

فـالـإـنـسـانـ قـدـ يـحـيـاـ.. وـلـكـنـهـاـ حـيـاةـ زـائـفـةـ.. حـيـاةـ هـيـ وـالـمـوـتـ سـوـاءـ..

وـحـدـهـ الـلـهـ سـبـحـانـهـ.. هـوـ مـنـ يـهـدـيـ إـلـىـ الـحـقـ..

اسـأـلـواـ اللـهـ الـهـدـيـةـ.. فـبـالـلـهـ نـهـتـدـيـ إـلـىـ اللـهـ"

المصادر:

- ابن علي، أبو إسلام أحمد (2008); عادوا إلى الفطرة؛ مكتبة صيد الفوائد الإلكترونية [العشي، عرفات كامل (2001); رجال ونساء أسلموا؛ القاهرة: المكتب المصري الحديث]
- فارس، نايف منير (2010); علماء ومشاهير أسلموا؛ الكويت: دار ابن حزم
- محمود، عبد الرحمن (2005); رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا؛ المكتبة الإسلامية الشاملة